

صورة الإسلام في الفكر الغربي المعاصر

دراسة في الإساح الاستشراقي

الدكتور لخضر شايب

كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة باتنة

1 - الاستشراق في دائرة الفكر الغربي:

توحي التعريفات التي اعتمدها بعض الدارسين المسلمين للاستشراق بأن هذا الحقل من حقول المعرفة، لم يكن إلا أداة ابتدعها الغرب المسيحي من أجل التحكم في فهم الإسلام؛ ديناً وثقافة وحضارة. وإتناء، لو أردنا التوقف عند نماذج من هذا الفهم، لنقلنا في هذه الدراسة عشرات النصوص. ولكننا، إنذاراً للاختصار، سننقل تعريفين؛ أولهما للأستاذ بن نبي، رحمه الله، حيث يعرف المستشرقين بأنهم "الكتاب الغربيون الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وحضارته"¹. أما التعريف الثاني فللدكتور أحمد غراب، حيث يحدد الإنتاج الاستشراقي بأنه "دراسات أكاديمية يقوم بها الغربيون، من أهل الكتاب، للإسلام والمسلمين؛ من شتى الجوانب، بهدف تشويه الإسلام، ومحاولة تمكيد المسلمين فيه"².

والحقيقة أن الكتاب المسلمين الذين اعتمدوا مثل هذه التعريفات كانوا بعيدين، تمام البعد، عن تصور الموقع المتميز الذي نبأه الاستشراق من المجتمع، أو المجتمعات، الغربية؛ منذ نشأته إلى اليوم. ذلك أن هؤلاء الكتاب قد تصوروه، كما رأينا، أداة استختمها الغرب، المسيحي الانتماء، كما ذهب إلى ذلك أكثر المسلمين، في صراعه الطويل مع العالم الإسلامي. بينما يدل التنوع الواعي للتاريخ الغربي العام ولإنتاج الاستشراقي، على السواء، دلالة واضحة على أنه استجابة ثقافية الطابع لحاجات تولدت عن تحولات شهدها العالم الغربي منذ القرن الحادي عشر؛ وهي التحولات التي كان يحركها، دائماً، ومهما كانت القوى الغربية التي تتحكم فيها - الكنيسة الكاثوليكية أو حركة الاستعمار مثلاً - السعي إلى بلوغ الانتشار العالمي.

وقد كان الاستشراق إذن هو الأداة الثقافية، كما قلنا، التي أبدعها الغرب من أجل التعرف، وتمثل ثقافات وحضارات العالم أجمع؛ وليس ثقافة وحضارة الإسلام وحده. وبناء على ما سبق، فإن تعريفه الصحيح لا بد أن يندلج على ذلك الجهد المنضبط الذي أبدع مؤسسة علمية ثقافية تهتم بالتخطيط وإنتاج وتنظيم مجموع الدراسات التي يقوم بها الغربيون عن الشرق: دياناته، وثقافته، وأعرافه، وحضارته³. وذلك لأنه التعريف الوحيد الذي يضع الاستشراق في مكانه الصحيح، أي باعتباره إبداعاً وموقفاً ثقافياً وحضارياً واجه به الغرب الحضارات التي تطرح ثقافتها نظرة مختلفة عن نظرة الغرب للكون والتاريخ والمستقبل.

ومعنى هذا أن دراستنا للاستشراق هي دراسة لموقف الغرب من ثقافات العالم؛ وذلك باعتبار إنتاجه، كما يقول الدكتور حميش " نصاً متواتراً، هو بالضرورة مدخل للتعرف على عقلية الغرب... وبالتالي على أنماط إنتاج صورته الغربية وبيدولوجيته"⁴.

2 - صورة الإسلام في الإنتاج الاستشراقي التقليدي:

لا بد أن نشير، بدءاً، إلى أن حديثنا عن شيء اسمه (الاستشراق التقليدي) غير صحيح إلا باعتبار التقابل الذي أردنا أن ننسبه إليه وبين (الاستشراق المعاصر)؛ وذلك من أجل تحقيق هدف هذه الدراسة، وهو بيان مظاهر التطور الحاصل في نظرة الغرب إلى عالم الإسلام في القرن العشرين.

أما في الواقع، فإن (الاستشراق التقليدي) يشمل إنتاج مراحل متعددة، ومختلفة تمام الاختلاف في أحيان كثيرة. وذلك تبعاً للميول العامة التي طبعت المجتمع الغربي، والتي استجاب لها حقل الدراسات الاستشراقية باعتباره ممثلاً للثقافة والمجتمع الذي أبدعه. وهكذا، فإن (الاستشراق التقليدي) يشمل مراحل الاستشراق القروسطي، واستشراق عصر النهضة، واستشراق عصر التنوير، واستشراق القرن التاسع عشر.

ونحن، إذن، لا نستطيع، خصوصاً في هذه الدراسة القصيرة، أن نصف الإطار العام، ونتبع تبعاً استقراراً تاماً جزئيات النظرية - أو النظريات - التي أنشأها الغرب عن عالم الإسلام فيما سميناه - تجاوزاً - الاستشراق التقليدي. ولكننا، ومن أجل تحقيق غرض هذا البحث، سنحاول تعريف القارئ بصورة معينة ظلت تتحكم في تصور عالم الغرب للإسلام لقرون طويلة. وقد اخترنا، متعمدين، أن تكون الصورة التي نقلنا على درجة عالية من (القباحة) و(سوء القصد) و(عدم

الصحة)؛ وذلك من أجل بيان أحسن للتغيرات التي أحدثها الاستشراق المعاصر في تصوُّره لأشياء الإسلام.

وإن من أحسن الكتابات التي تحقِّق ما قصدنا إليه تلك الكتابات التي قادتها أول الأخويات الدينية المسيحية الحديثة ظهوراً، وهي أخوية البنديكتيين Bebedictains التي نشأها منذ 547 م القديس بنوا من نورسي Saint Benoi، والتي اعتمد عليها البابا غريغوار الكبير في تمسيح الساكسون⁵. وقد انتشرت هذه الأخوية في إسبانيا وفرنسا، وأصبح رهبانها يتولون التأليف عن الإسلام منذ القرن العاشر الميلادي.

وقد عمل قساوسة هذه الأخوية على نقل صورة في غاية البشاعة عن الإسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم، رغم وجود الإمكانات الحقيقية، لمعرفة أحسن بالمصادر الإسلامية. ولكن ضرورات تنمية الحقد المسيحي على المسلمين جعلهم يعكسون المنهج فيكتبون ما بدا لهم، مستغلين الجهل العام بين المسيحيين الذين لا يجيدون العربية أو غير المتصلين بالمسلمين. وهذه حال إيلوج القرطبي Eloge de Cordoue الذي اشتهر بكونه الأكثر علماً من بين قساوسة بلاده؛ والذي لم تخرج كتاباته عن إطار الكذب المحض على النبوة والسيرورة والتشريع الإسلامي؛ فقد تنبأ محمد - ص - بالنسبة له "عندما أحس يقرب موته ... بأن الملائكة سوف تأتي لتبعه في اليوم الثالث بعد موته... وبعد نزول روحه (...). فإن أصحابه قد قاموا ليحرسوا جسده، ولما جاء اليوم الثالث ولم تأت الملائكة لتصرفوا؛ لاعتقادهم بأنها لن تقترب في حضورهم. وفورا، وعوضاً عن الملائكة قدمت الكلاب لتتشم جسده النبي. وما بقي منه دفنه المسلمون. ولينقموا من الكلاب، فإبهم أمروا بأن يقتل عند عظيم منها في كل سنة، فيذه هي معجزات نبي الإسلام"⁶.

وإضافة إلى هذه الأساطير التي تُظهر النبي - ص - في صورة المبتدع، فقد عمد الإسبان والفرنسيون إلى نشر فكرة اعتقاد المسلمين في ألوهيته. وهذا أمر واضح في ملحمة (رولان) التي كتبها الشاعر النورماندي (تيزولند) في القرن الحادي عشر مع أن الواقعة التي رواها قد وقعت في القرن الثامن. وهو يصور في هذه الملحمة المسلمين مشركين حقيقيين يعبدون مجموعة من الآلهة تتكون من: محمد، وأبولو، وجوبين، وترافاجان⁷. ورغم إمكانية التأكيد من كذب (تيزولند) المحض من النظر في عبادات المسلمين، ومراجعة الحوادث التاريخية التي تبين أن شارلمان لم يحاصر في غزوه لإسبانيا إلا (سرقسطة) التي امتعت عليه، على عكس ما يدعيه الشاعر الذي جعله يفتح كل إسبانيا ما عدا هذه المدينة. وعلى

الرغم من أن قوات مشتركة من المسلمين وقبائل (التيكس) قد أبادت موخرة هذا الجيش عند الانسحاب، إلا أن تيروك راح بصور (حكم) شارلمان لإسبانيا وعبادات المسلمين المشركين. كما راح الأوروبيون ينسجون الخرافات حيث زعموا أن القرآن هو إله من آلهة المسلمين⁸.

والملاحظ أن منهج بلوج القرطبي المتمثل في استغلال معلومة مؤكدة يعرفها المسيحيون عن المسلمين، نظرا لظهورها في حياتهم؛ ثم اخلاق أسطورة منفردة تُرجع سبب تمسك المسلمين بها إلى أحداث السيرة، منهج يشاركه فيه غيره من الكتاب المسيحيين في تلك الفترة. ولا يخفى ما لهذا المنهج من تأثير، إذ أنه يمزج المظاهر التي لا يمكن أن يفهم أحد بالكذب فيها بالاختلاق له، كمنع عند التفسير، وبهذا ضمنوا حقد قرانهم والمستمعين إليهم على الإسلام والمسلمين.

والملاحظ أن طابع الحقد الشديد الذي يظهر في مؤلفات هؤلاء الرهبان على الإسلام وأهله، وإن كان يعود في أساسه إلى عيظهم من الإسلام؛ الدين الذي استولى أهله على الكثير من الأرض المسيحية. إلا أن الغلبة الثقافية والحضارية للمسلمين الإسبان على عالم المسيحية، قد زاد من حدة الشعور بالخوف على وجود المسيحية ذاتها في إسبانيا، إذا ما استمر الوضع على ما هو عليه؛ أي بقاء العربية لسنا مشتركا للمسلمين واليهود والنصارى، وزوال الترامات اللاتينية، وانتشار زواج المسلمين من المسيحيات⁹. ومن النصوص الدالة في هذا الخصوص ما كتبه ألفارو: "إن مواطني المسيحيين يتمنعون كثيرا بالقصائد والقصص العربية. إنهم يدرسون أعمال علماء العقائد والفلاسفة المحميين، لا من أجل نقضها؛ ولكن من أجل الحصول على أسلوب عربي سليم ورشيق. من يستطيع اليوم أن يجد علمانيا يدرس التعليقات اللاتينية على الكتاب المقدسة؟ للأسف، فل السبان المسيحيين الذين يتميزون بمواهب خاصة لا يعرفون أي آنب لو أي لغة خارج اللغة العربية. إنهم يقرأون ويندسون بشراسة الكتب العربية. ومن ناحية أخرى، فأنك، عندما تُحدثهم عن الكتب المسيحية، فإنهم يحتجون، باحتقار، بأنها ليست جديرة باهتمامهم ... إن المسيحيين قد نسوا حتى لغتهم الخاصة"¹⁰.

3 - صورة الإسلام في الإنتاج الاستراقي المعاصر:

خضعت نظرة العالم الغربي المعاصر إلى الإسلام إلى الكثير من التغيير، الذي فرضته جملة التطورات الثقافية والسياسية التي شهدتها العالم المعاصر؛ والتي كان الغرب أكبر المساهمين في إحداثها، والخضوع لتأثيراتها. وإنما نجد مظاهر

ذلك في الكتابات العامة، التي دعا أصحابها إلى ضرورة تجاوز مرحلة اللاتسامح إلى محاولة الفهم المتبادل، وإلى التنوع المطلوب في الأفكار¹¹. كما نجد في المؤلفات الأكثر تخصصاً، والتي يعطينا عنها العالم الأمريكي الكبير، جورج سارتون، صورة جيدة؛ إذ ذهب يؤكد بشكل أكثر عمقا وإصرارا من المفكرين الغربيين السابقين عليه تبعية الحضارة الغربية المعاصرة للحضارة الإسلامية، يقول: "إن الصلة بين اليونان القديمة والنصرانية الغربية قد انتهت إلى حالة من التراخي، لاحظت كأنما هما إلى انفكاك تام ما لم يتدخل شعب شرقي آخر، هو العرب، ويجب ألا يغيب عنا أن هذا التدخل هو الموجة الثالثة من موجات الحكمة المشرقية، والمرحلة الثالثة التي يتلقى فيها العالم دفعة خلاقة من ناحية الشرق"¹².

وقد أرجع سارتون عبقرية الحضارة الإسلامية التي قادت العالم لعدة قرون إلى النقاء الدين الإسلامي، الذي منحها الوجدانية والروح واللغة الواحدة، بالحضارات القديمة وخصوصا الفارسية واليونانية؛ فكانت هذه الحضارة إنتاجا بديعا، إذ لأول مرة في تاريخ الدنيا تتحد الديانة السامية بالمعرفة الإغريقية، وتفرخ في عقول كثير من الأمم. ولم يقتصر ذلك الأمر على مدينة بدأتها، أو مملكة يعينها. لقد انتشرت الثقافة الجديدة... من بغداد إلى الهند، ومن بلاد ما رواء النهر إلى آخر طرف من أطراف الدنيا"¹³.

وعلى المستوى الديني، فإن هناك تعبيرا ملموسا قد حدث في الخطاب الرسمي للكنيسة الكاثوليكية؛ التي ظلت سياساتها اتجاه الإسلام تغذي العداء ضده لمدة قرون من الزمان. وتبدو ملامح هذا التغيير في خطابها الرسمي عن الإسلام، وذلك منذ صدور الوثيقة التي وزعتها أمانة سر الفاتيكان على مجموعها الثاني لغير المسيحيين؛ والتي تدعو فيها إلى ترحيب الصورة البالية الموروثة عن الماضي، أو المشوهة ببعض الأوهام والافتراءات المسيحية عن الإسلام. وقد اعترفت فيها الكنيسة بأخطاء الماضي وانحرافاته التي افتزقها الغرب ذو النساء المسيحية بحق المسلمين. إنها تنتقد مفاهيم المسيحيين الخاطئة عن قرية الإسلام، وتمسكه بالتشريع وتعصبه، وتلح على وحدانية الإيمان بالله، وتذكر بالمفاجأة العظيمة التي أحدث بها الكاردينال (كوشاج) سامعيه في المحاضرة التي ألقاها سنة 1969 بالقاهرة، في جامعة الأزهر، حين أعلن هذه الأفكار. كما تذكر بأمانة سر الفاتيكان

سنة 1967 التي دعت المسيحيين إلى تهنئة المسلمين بانتهاء صيام رمضان، وكونه: قيمة دينية أصيلة¹⁴.

وقد أثمر هذا الموقف، بالتزامن مع الجهود المبذولة في مجال البحث النقابي، استحداث مؤتمرات الحوار بين الأديان الذي رعته مؤسسة الصداقة الإسلامية المسيحية التي عقدت مؤتمرها الأول في قرطبة سنة 1974¹⁵. وقابل ذلك، من الجانب الإسلامي، دعوة الشخصيات الدينية والثقافية الكبرى في العالم الغربي للإسهام في إثراء البحث العلمي في البلاد الإسلامية، كما هو واضح في مؤتمرات الفكر الإسلامي الشهيرة في الجزائر.

وقد استجاب حقل الاستشراق للتطورات العامة التي حدثت في العالم الغربي إبان هذا القرن، كما كان أول المساهمين في التأسيس للعلاقات الجديدة بين العالمين الغربي والإسلامي. ورغم أن نتيج الحقل التي ظهر فيها التطور في الدراسات الاستشراقية أمر مستحيل نظرا لتعدد ملامحه، إلا أننا نحاول أن نعطي صورة عن ذلك بواسطة الإشارة إلى ظهور كتابات المستشرقين المسلمين في عالم الفكر، ومن هؤلاء: نصر الدين دينيه، ومحمد أسد، ورجاء غارودي، وعبد الواحد يحي غينون، ومزاد هوفمان ... وكذلك الظهور القوي لمؤلفات التيار المتعاطف أشد التعاطف مع الإسلام وحضارته، والذي تولى مسؤولية القيام به عدد كبير من المستشرقين أمثال: الإيطالية لورا فيشيا فاغلييري، والسويسري روجيه دو باسكويه، والألمانية سيغريد هونكه، والفرنسي موريس بوكاي، والأمريكي دانييل دانييت ...

وإننا نستطيع أن نرى ملامح هذا التطور الكبير حتى في كتابات المستشرقين الذي ظلوا محافظين على مرجعياتهم الدينية اليهودية والمسيحية أو الفكرية، مثل الماركسيين وأصناف الملاحدة. ويظهر ذلك في تعدد الأسباب التي أصبحت تحرك التأليف الاستشراقي، الذي تجاوز فيه الباحثون المعاصرون السبب القروسطي الكامن في الدفاع عن المسيحية بمنهج الانتقاص من الإسلام. كما تجاوزت الكثير من الدراسات المعاصرة المرجعية الاستعمارية إلى مرحلة بحث الإسلام والحضارة التي أنتجها انطلاقا من أهداف جديدة، مثل تحقيق التقارب بين الحضارتين: الإسلامية والمسيحية¹⁶. ومثل البحث في رسالة الإسلام باعتبارها ما زالت مستمرة، ولهذا يهمنا أكثر من أي وقت مضى أن نعرفه أكثر، في

تتويعته، وفي ميراث التقاليد والأماثي التي ما زال ينقلنا إلى تابعيه¹⁷، ومثل
تتوير العلاقات السياسية للدول الإسلامية والغربية بمعرفة مرجعيات المسلمين،
ومن هذا المنظور فإن " أحداث الشرق الأوسط، ومكانة ودور الدول الإسلامية في
الساحة السياسية العالمية ليست غريبة على موضوع تعدد الدراسات والكتب
والمقالات عنه، فمن المستحسن أن ينار الحاضر بالماضي"¹⁸.

وقد تدخل العامل العلمي البحث في بعض الكتابات الجديدة، حيث ألف
بعض المستشرقين الكتب التي تطبق فيها المناهج الجديدة في دراسة الظاهرة
الدينية خصيصاً للطلبة المسلمين، ومن هؤلاء: (سوفاجيه) في كتابه الجيولوجرافي
(متخل إلى تاريخ الشرق المسلم) الصادر سنة 1943. وقد نَقَحَ الكتاب نفسه
وأضاف إليه المستشرق (كلود كاهن) سنة 1961 بعض المواد الجديدة من أجل
تحقيق الغرض نفسه¹⁹. ومثل جون بول شارناي الذي صرح بأنه " في السنوات
السابقة، طلب منا مجموعة من الطلبة المسلمين الذين يحضرون رسائل جامعية في
التاريخ الاجتماعي للدين تأليف كتاب يكون مدخلا لعلم الاجتماع الديني ... وذلك
لأن مناهج وروية هذا العلم لا تتفق، لأول وهلة، مع التساؤلات العقديّة التي من
الممكن أن تطرح في المجتمعات الدينية"²⁰.

ومن الملامح البارزة لهذا التطور ما يلاحظ من تغيير في المناهج التي
أصبح يستخدمها المستشرق في دراسة الموضوعات الإسلامية، والتغير المحسوس
في لغة الكتابة والأحكام التي أصبح يعطيها عن موضوع دراسته. ومن هذا
المنظور، فقد أبدى جُلُّ المستشرقين المعاصرين رفضهم للأفكار التي صدرت عن
الاستشرق القروسطي، والكتابات الصادرة عن مرجعيات استعمارية أو عرقية.
وأصبحت صورة النبي - ص - أكثر نقاء حيث " يعترف الكتاب الغربيون
المحدثون، في الغالب، بصنق شخصية محمد الذي عاملتها الدراسات القديمة -
التي لا تحتوي إلا على ادعاءات تحاول أن تطمسها - بازراء"²¹.

وقد أثمرت هذه النقالات التي حققها الاستشرق نتائج كثيرة، لعل أهمها
شهود العالم الغربي لمؤلفات لم يعد أصحابها يجنون أي حرج في إبداء كامل
التقدير للإسلام ولشخصية النبي صلى الله عليه وسلم. وقد كتب مايكل هارت ببرر
اختياره للنبي - ص - باعتباره أعظم الشخصيات تأثيراً في العالم: " لقد اخترت
محمدًا - ص - في أول هذه القائمة، ولا بُدَّ أن يندعش كثيرون لهذا الاختيار،

ومعهم حق في ذلك؛ ولكن محمداً هو الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحاً مطلقاً على المستوى النبوي والتنبؤي.²²

والصالحون أن هارت قد رأى في الامتزاج بين الطابع النبوي والتنبؤي للإسلام قيمة عظيمة. وفي هذا الحكم الذي ما فتى يتأكد باعتباره من الأوجه الكثيرة لتعلق الإنسان العربي بالإسلام إلى درجة اعتناقه أو احترامه على الأقل، وجه من وجود الأزمة التي يمر بها الغرب المعاصر الذي تنهات بناءاته الاجتماعية نظراً لتعيب المرجعية الدينية. وهكذا نرى تحول الفكر الغربي من اعتبار تقنين الإسلام للحياة الأخلاقية والسياسية ومزجها بالحياة الدينية عيناً، كما عند جولدزيهر ولا مانس وغيرهما، إلى قيمة أصيلة، جعلت هارت - وغيره كثيرين - يؤمنون بأن محمد - ص - هو أعظم الشخصيات أثراً في التاريخ الإنسانية كلها.²³

ومع هذا يبقى السبب الأول في حركة التأليف الاستشراقي ذلك الاعجاب الشديد بالحضارة الإسلامية، وهو الأمر الذي تأكد بظهور مئات الدراسات وخصوصاً الرائدة منها، مثل كتابات (لوبيون) و(هونكه) و(جاك بيرك)، والتي أسهمت في التعريف بوجود إبداع المسلمين في جميع مجالات الحياة، وبيّنت التداخل بين تاريخ الإسلام والغرب، فمنذ "ثلاثة عشر قرناً، في أوقات الحرب أو السلم، كان التاريخ الإسلامي يمتزج بتاريخنا، وحضارتنا نشأت عن الأساس نفسه. وإن كان الذي أضفناه - بقصد الطابع المادي - قد خلق هذا الاختلاف العميق. فإن المقارنة ستساعدنا على فهم أحسن لأنفسنا وللآخرين. ولقد الأسباب ... يبدو ضرورياً أن يتبوأ تاريخ العالم الإسلامي مكاناً مرموقاً في ثقافتنا ... ولا بد أن نعرف أنه قيل أن يكون القديس توماس كان هناك ابن سينا، وأن مساجد دمشق وفرطية وجدت قبل كاتدرائيات فرنسا وألمانيا. وضروري (هنا) أن ننسى الاحتقار الذي قابلاً به الشعوب الإسلامية المعاصرة".²⁴

أما أهم مظاهر هذا التطور فهو ظهور طابع النقد الذاتي الذي احتل، رغم احتشامه وجزئيته، مكاناً إلى جانب التسليم التام بمقولات الاستشراق التقليدي. ومن أمثلة ذلك الرفض الكلي الذي قابل به جمهور المستشرقين إنتاج الأب هنري لامانس، وذلك للطابع الحاد الذي ميزه، وعدم التزامه بأدنى شروط البحث العلمي والنيافة. وقد كتب كارلوفاف عنه: "يحق لنا أن نعجب أنه العجب من كاهن كاثوليكي مثل الأب لامانس، يتطوع للدفاع عن أولئك الساكنين الطغاة - بقصد

الأمويين - ساخرا من سذاجة علي، الذي مكروا به وخذعوه، وإني لغريبة حقا هذه المباحث التي يُبدي فيها هذا المؤلف ... تشيُّعه للأمويين ضد بني هاشم، والتي تتوالى فيها المرافعات الدفاعية، والانتقادات الدعائية، أخذ بعضها برقاب بعض²⁵.

كما كتب وات منبها إلى نقض مراجع المستشرق الإيطالي الأمير ليون كابتاني، وه الأمر الذي يعنى نسبة النتائج التي انتهى إليها، وبالتالي سيولة - وضرورة - تقييم مبالغته في الشك²⁶. وكذلك فعل مع الأب لامانس الذي أدنى به الأمر " إلى استبعاد أخبار الفترة المكية، غير أن كثيرا من العلماء اتفقوا على القول بأنه مبالغ في ذلك كثيرا²⁷. وقد أصبح شائعا في النوازل الاستشرافية أن لامانس " يتجاوز الأدلة كثيرا ... إذ أن طريقته العائنة في المعالجة ليست طريقة علمية، فهو يرفض هذا الرأي، ويقبل الأخر، حسب أفكاره الخاصة ومعتقداته دون أن يعا بالموضوعية"²⁸.

والحقيقة أنه لم ينج من النقد والتقويم أي مستشرق معاصر. وقد تعرض، مثلا، المستشرق الكبير ماسينيون لنقد تلميذه جاك بيرك الذي أظهر محتوية مناهجه ومقارباته. وقد ظيرت خلافتهما بدءا من نقاشهما في (حوار حول العرب) " حيث كان بيرك ... يبرز أمام محاوره ضرورة تبني لغة جديدة تتسمج ... مع الحس الجنلي والشعور التاريخي"²⁹. وكذلك فعل هاملتون حد الذي أبرز في نقده لماسينيون الطابع الغارق في الذاتية لتحليلاته للموضوعات الإسلامية، وعدم فصله في كتاباته بين الذات والموضوع، مما شكل عقبة أمام من يحاول أن يتتبع آراءه³⁰. ومن ذلك إبطال الدراسات اللاحقة على كازانوفكا النتيجة التي انتهى إليها في كتابه (محمد ونهاية العالم) الصادر سنة 1911، والمنمطة في محاولته إثبات تأثير النبي - ص - بالمسيحيين؛ وذلك بناء على عناصر التشابه الظاهري بين بعض الآيات القرآنية وفكرة نهاية العالم في المسيحية. وقد صرح سوفاجيه وكلود كاهن بأن كتاب كازانوفكا " مثير للانتباه، ولكن نتائجه غير مقبولة على العموم"³¹. كما أبطل الفكر الاستشراقي رأيا مشابها لرأي كازانوفكا، عبّر عنه (نورندرائي) مستندا على تشابه خارجي بين القرآن الكريم وخطبة أحد وعائط الكنيسة السورية. وهو القديس أفريد، إذ أن " هذه الفرضية لا يستدعها أي دليل محدد، ولا تكفي للتعبير عن النقحة والقوة التي تُشعشعُ سور القرآن الأولى، إضافة إلى هذا، فإن محمدا يختلف تماما عن المسيحيين في تصوُّره للحياة الآخرة"³².

ومن الملاحظ أن هناك من المستشرقين من أنجز دراسات جديدة تماماً، جعلت أهدافها الأساسية إبطال مزاعم وأراء قال بيا ونشرها كبار المستشرقين. وهذه حالة المستشرق الأمريكي (دانييل دينيت)، الذي عمل على ردّ الرأي الشهير لفلهاوزن وبيكر ويل، حول عدم معرفة المسلمين بموضوع الضرائب مدة تزيد عن قرن من الزمان عن قيام الامبراطورية الإسلامية؛ حيث ظل المسلمون - حسب هؤلاء المستشرقين - يجمعون إتاوات يفرضونها على البلاد المفتوحة بشكل غير منظم، كما أنهم قرّروها دون أن تعينهم طرق جمعها.

وقد أكد فلهاوزن أن لفظ (خراج) و(جزية) قد ظلا مترادفين حتى سنة 121 هـ، عندما أصدر نصر بن سيار، والي خراسان، قراراً يقضي بأن يؤدي الناس جميعاً ضريبة الأرض، وهي الخراج؛ أما ضريبة الرأس - الجزية - فلا يؤديها إلا غير المسلمين³³. ولما كان ما ادعاه يتعارض مع ما بينه الفقهاء والمؤرخون المسلمون، فقد اتهمهم فلهاوزن في كتابه (الدولة العربية وسقوطها) الصادر سنة 1902 بالتزيف، وذلك بالحقاقهم نُظم عصرهم إلى أيام الرسول - ص - والخلفاء الراشدين، حتى يحيطوا بجوهر التنبيل³⁴. وقد وافقه المستشرق (بل)، حيث رأى أنه لم يجد في الوثائق الرسمية لذلك العهد فروقاً في الاستعمال بين الخراج والجزية، كما وافقه في اتهامه للمسلمين بالوضع³⁵.

وقد ركز دانييل دينيت على إبراز أن هناك ثلاث نقاط لقيت قبولاً من المستشرقين بحيث لم يعارضها أحد منذ كتبها فلهاوزن، وهي:

ميل المصادر العربية إلى أن تنسب إلى عهد الرسول - ص - والخلفاء الراشدين نظاماً تنتمي إلى عهد متأخر.

لفظتا خراج وجزية مترادفتان في الاستعمال الإسلامي، ومعناهما الإتاوة. أن النحول في الإسلام كان يعفي المؤمن من جميع التزامات هذه الإتاوة. وقد شكك دينيت في جميع هذه النتائج، وركز على مسألة المنهج الذي اعتمده فلهاوزن؛ الذي كان يسوق شواهد ثم يرفض ما لا يتفق مع آرائه، ويعتبره زائفاً منتلقاً دون أن يقدم أدنى دليل على ذلك. والأدهى من ذلك أنه كان يختار عن النص الواحد فقرة بعينها "ويتم في الوقت نفسه بقية عبارات المصدر بالتزيف". وقد أبرز دينيت أن المنهج نفسه يلاحظ في كتابات المستشرق الكبير (كايناني)، صاحب (حوليات الإسلام) الصادر في ميلانو سنة 1912، والذي ذهب يؤكد أن المؤرخين المسلمين صاغوا قولهم على مثال واحد ينسبونه إلى العهد الأول، وقد

نقل عنه قوله : " إنه لا يحدث، أبدا، أن تُقرأ في البلاذري لأكثر من خمس عشرة دقيقة، في أي موضوع تختاره ... دون أن يواجهك مثال على الأقل - والغالب أن يواجهك الكثير من الأمثلة - على حالة غُذِلَ فيها الاتفاق الذي تم عند الفتح، في عهد خلفاء متعاقبين " ³⁶. يقول دانيث ردا على فكرة اختراع المسلمين لرواياتهم: " وكابتائي لم يستعمل أبدا أسوأ من عبارة (كانما صيغت على مثال) حينما اتهم المؤرخين المسلمين بتزييف الفصول الرئيسية في الرواية الإسلامية الكبرى ... ولا يستطيع أحد أن يخرج من قراءة أي مؤرخ من المؤرخين المسلمين المعتمدين بفكرة أن هؤلاء يقدّمون شواهد موحّدة، كأنما (صيغت على مثال)؛ بل الحقيقة هي: أنهم يقدّمون كثيرا جدا من الحقائق، وكثيرا جدا عن الروايات المتعارضة " ³⁷.

ومن المعروف أن هذه الملاحظات وغيرها قد دفعت دانيث إلى تقرير أن الموقف الذي اتخذهُ فلپاوزن ومن اتبعه من الباحثين يحيط به العديد من الصعوبات، إلى حد أنه أصبح في حاجة إلى تخصيص شامل. وهو ما قام به في كتابه (الجزية والإسلام).

4 - وأما بعد: فقد حاولنا في هذه الدراسة أن ننقل صورة، وإن كانت باهتة، عن عدد من التطورات التي لحقت صورة الإسلام في الفكر الاستشراقي المعاصر. ومع هذا، فيجب أن نؤكد مع الأستاذ إنوارد سعيد أن هذا الحقل من حقول المعرفة قد ظل يتميز بموقفه التراجعي حين يُقارن مع العلوم الإنسانية الأخرى بل وحتى مع فروع أخرى من الاستشراق؛ وتخلّفه المنهجي والعقائدي العام ³⁸. وتلك قضية أخرى ...

هوامش البحث :

- 1- افتتاح المستشرقين واثرة في الفكر الإسلامي - مطبوع ضمن كتاب قضايا كبرى لابن نبي - ص 167
- 2- رواية إسلامية للاستشراق - ص 8
- 3- النظر / الاستشراق - إنوارد سعيد - ص 38. والاستشراق في وفق لتسادة - د. ش. حشش - ص 7
- 4- الاستشراق في وفق لتسادة - ص 7
- 5- Histoire des ordres religieux - Henri bonnet- p 15
- 6- Islam Medieval - Von Grunbaum - p 57
- 7- السابق - ص 58
- 8- النظر / الفتوحات الإسلامية - جوزيف زينو - ص 105، أضواء على مواقف المستشرقين والمستشرقين - د. شوقي أبو خليل - ص 204
- 9- النظر / ابن رشد - إرنست ريلان - ص 185 ...

- 10 - l'Islam medieval - Von Grunbaum - p 68 .
- 11 - histoire de la libre pensee - Albert payet - p 112 .
- 12 - تاريخ العلم والإنسية الحديثة - ص 155 .
- 13 - السابق - ص 195 .
- 14 - التوراة والإنجيل والقرآن والعلم - موريس بوكاي - ص 8 . 9 . 10 .
- 15 - انظر / في الفكر الديني الحديث - د. محمد إبراهيم القوي - ص 117 .
- 16 - l'Eglise et l'Islam - G . Zanariri - intro .
- 17 - les schismes dans l'Islam - Henri laoust - intro .
- 18 - l'Expansion musulmane - Robert mantrant - intro .
- 19 - Introduction a l'Histoire de l'Orient musulman - Sauvaget et C. Cahen - p 5
- 20 - sociologie religieuse de l'Islam - Jean paul Charnay - intro .
- 21 - la civilisation de l'Islam classique - p 24 .
- 22 - الحداثيون مائة أعظمه محمد - ص 13 .
- 23 - السابق - ص 16 .
- 24 - l'Islam des origines au debut de l'empire Ottoman - C. cahen - p 7 . 8 .
- 25 - محمد رسول الله - نصر الدين زبيده - عظيمة الشيخ عبد العظيم محمود - ص 53 . 54 .
- 26 - محمد في مكة - مونتغمري وات - ص 6 .
- 27 - السابق - ص 9 . 10 .
- 28 - السابق - ص 242 .
- 29 - الاستشراق في أفق استداده - د. سالم حميش - ص 79 .
- 30 - السابق - ص 77 .
- 31 - Introduction a l'Histoire de l'Orient musulman - p 123 .
- 32 - l'Islam - Dominique Sourdel - Introduction .
- 33 - ضحك النبي - ص - على البلاد المفتوحة غنوة نظام تقسيم الأرض على الفاتحين بعد تخمينها. وقد قسّمها عمر بن الخطاب في هذه الحالة على مجموع المسلمين، واستند إلى قوله تعالى : " وما آفاه الله على رسوله من أهل القرى قلته وللرسول ولذات القربى... " ولهذا، فقد فرض على رقاب أهل الأرض (الجزيرة)، وهي في مقابل عتقهم " وعلى الأرض الخراج ". وفي هذا نيل واضح على تمييز المسلمين منذ عهد الخلافة بين الجزية والخراج ، انظر / معجم البلدان الحموي / 1 / 44 . وقد كان المسلمون لا يميزون بين الجزية والخراج . لأن الأرض تعثر فينا ومن الممكن أخذ الخراج عنها في الوقت نفسه. ولعل فياوازن استغل عدم تمييز المسلمين بينيما فجاء بنظريته الغربية. انظر / كتاب الخراج - أبو يوسف - ص 26 ...
- 34 - انظر اراء فلياوزن في / الجزيرة والإسلام - دليل دابيت - مقدمة المترجم ص 12 . 13 .
- 35 - انظر / المرجع السابق - ص 21 . 22 .
- 36 - السابق - ص 37 . نقل عن / حوليات الإسلام - كابتلي - ج 5 - ص 273 .
- 37 - السابق - ص 38 .
- 38 - الاستشراق - ص 256 .